أوراق الورد

رسالة الغضى [1]

تحيَّرَ قلبي وهوَ ممتلئٌ بها كما يملأُ المرآةَ ناظرُها ظلا
بأيِّ مكانٍ فيهِ قد حلَّ شخصُها وأيُّ مكانٍ شخصُها فيهِ ما حلا ؟

لقد غضبتْ وكرَّ هجرُها على وصلها وانشقَّ الزمنُ زمنين أحدُهما مثلُها غضبانُ بعيدٌ وكأنما كان لها خاصَّةً فلما ذهبتْ لحق بها

إنهُ الحبُّ يخلقُ بها خَلْقاً فيَّ وبزمنها خلقاً في زمني ليُشعرَنا بهذا التغير الخالق المتصرف أنا لا نتحجَّبُ في ذاتِ نفسينا بل في الجلال الاعظم الذي منهُ نفسها ونفسي ، فإذا تقاضينا وقسمنا أهواؤنا رجعنا قطعتين من المادة ليس في كليهما الا قانونُ التثقل . . . . وزادت هواطنا وزناً جديداً من الغيظ

أين زمنها ؟ لقد فرغ وقتي منهُ حتى يخيَّلَ اليَّ أن اليوم الذي هو أربعٌ وعشرون ساعة لا يكفلُ لي بعدها عشرين واربعاً . وألمظُ في ساعتي ، فاذا كانت السابعة مساءً وانا اليها والتاسعة التي معها [2] شُبِّه لي وغُمَّ عليَّ وحسبتُ أن في هذه الساعة منطقة خارجة عن الزمن تخطاها المغرب ولا يشير اليها

أهي ألفت غضبها فيَّ أنا أم في حياتي وأيامي ؟

***

كلاَّ كلاَّ . لقد غضبتْ لتزيدَ في أسرار حبها سرَّ الماضي ، ولتمرَّ على أيامها الهنية مسحةٍ من القسوة تخلق فيها الى جمال الحقيقة جمالَ الذكرى

وكانت .... وتريد ان تأتي في الحب من وراء ما كانت فذهبت . وهذا في فلسفتها هو المجيء من وراء ما كان

الفرحُ بالجمال لذة تقتل نفسها . ولا يمسك على الجمال روحَ النعمة خالدةً في القلب الا الحزنُ به احياناً ، كيوم الغيم ترى في سمائه رقطعاً كأنها الخاربة من الليل تختبئ الشمس فيها ثم تسطع من بعدُ سطوعاً يخيل اليك انها ما توارت في خيمة الغمام الا لتنضوَ غلالتها الشفافة وتتمرى

---

(١) لما تقاضانا كتب هذه الرسالة في كتب نفسه (٢) كانت ساعة اللقاء حتى ما يظهر ....

يريد الجمال المشوقُ أن يثبت فينا فيغيبَ عنا إذ كان بذلُهُ يُفنى منهُ على قدر ما يعطي . فاذا هو امتنع وعزَّ منالُهُ كان جمالاً في نفسهِ بمعانيهِ وجمالاً فينا بالمعاني التي هي فينا ، وكان لهُ من اجتماع الحالتين حالةُ جمالٍ ثالثة هي في ألم الرغبة المستمرة أو ألم الغيظ المجنون . ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طولَ الزمن ، ومن المتاع بالحسن العذابَ بتمنيه ، ومن الحيبة الراضية حيبةً هاجرة ، ومن الحاضرة غائبة ، فقد ارتفع عن انسانيتنا وجاءنا من ناحية سرّه الالهي

***

كلاَّ كلاَّ . لقد غضبتُ لأحبها صورةً مبهمة ليس فيها انسانةٌ بل حبُّ إنسانة ، وانتزعتُ نفسها مني بعد ان انتزعتُ لنفسي كلَّ معانيها التي جعلتها ماهي . ألا يا ثمرةً أفرغت في قلبي عصيرها الحلو ! لئن بقيت ثمرة في لثة نفسك فانك الفتيرة في لثتي أنا . . . .

إنهُ ليس معي الا ظلالها ولكنها ظلالٌ حية تروح وتجيء في ذاكرتي . وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كأن لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهَمُ كلامَ الطبيعة بكلِّه مترجماً الى لغة عينيه ، أصبحتُ أراها في هجرها طبيعة حسن فانا مترجمة بجملتها الى لغة فكري . كان لها في نفسي مظهرُ الجمال ومعهُ حافة الرجاء وجنونهُ ثم خضوعي لها خضوعاً لا يفنى . . . . . فبدَّلني الهجرُ منها مظهرَ الجلال ومعهُ وقارُ اليأس وعقلهُ ثم خضوعُها لخيالي خضوعاً لا بصرهُا . . . . .

كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع اليَّ صوابي خطوة . . . .

***

كلاَّ كلاَّ . فلا صواب مع مادة الفتنة ، وهل يفتن الانسان الاَّ حين يظهر مجنوناً بأسمى ما فيهِ من العقل ؟

أنا عاشق أضمُّ الطبيعة في مهجتي مُصَغَّرةً فأنا الأكبر . . . . ان هذا لجنونٌ ولكنهُ عقل . وأنا عاشق أفسّر الطبيعة في هذه الحيبة الجميلة فهي الأجمل . . . . ان هذا لعقلٌ ولكنهُ جنون

وقد كانت لهذه الحيبة نظرةٌ معنوية هي مفتاحها في قلبي . وها هي ذي غضبى نافرةٌ لا أراها ولا تراني ولكن المفتاح لا يزال يدور في قفله . . . . أجنون هذا أم عقل ؟ وهي الحيبة ولكنها كالمدوَّرة من أقسى ما في الطبيعة جاءت تقضي فيَّ قانوناً من عقوباتها . أعقلٌ هذا أم جنون ؟

لن يقال في الذي تحمله عاصفة وتطير به إنهُ مسافر في طيارة . . . .

ولا في الذي رأى صورة دينار في مرآة فحطم المرآة ليأخذ الدينار إنهُ وجد شيئاً . . ولكن يقال في الذي دلّهُ الجمال إنهُ في لجج الهوى
وفي الحب الذي يحطم قلبهُ على امرأة إنهُ وجد الحب

***

كلاَّ كلاَّ يا قلبي. إن الغضب يجمع جنون الحب من شخصين في شخص واحد . ها أنذا يحوطني الآن هدوء الأشياء وابتسام الجمال الأزلي المفتر عن نور الدنيا . أنا في كل ذلك وانت في هدأة ولا ابتسامة ، غريق في البحر ولا يبتلّ . . . .

لعمري لو غضب قاع الأقيانوس غضبة حب لانتفخ به الغيظ حتى يطوّ فوق الماء جزيرة جافة فلا يتندّى ولا يرق ولا يعود الاّ خلقة غيظ

فليكن ما طاوعَ مني هو الذي يأبى وما أحبَّ هو الذي يبغض ولتأتِ على الحب غابرة الدهر وآخرة الليالي

لقد اصبحتُ أرى ألينَ العطف في اقسى الهجر ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا ولن يحسُنَ عندي ما لا يحسن ولن اطلب الحب الاّ في عصيان الحب . أريدها تحضني فهذا جمال يلائمُ طبيعتي الشديدة وحبٌّ يناسب كبريائي . ودع جرحي يبرّشُ دماً فهذه قوة الجسم الذي ينبت ثمرَ الفضل وشوكَ الخلب

أريدها لا تعرفني ولا أعرفها لامن شيء إلاّ لانها تعرفني واعرفها . . . . تتكلم ساكتةً واردُّ عليها بسكوتي. صمتٌ ضائع كالصمت ولكنَّ له في القلبين عمل كلام طويل . . . .

أما والله ما أدري أحاجتي في حبها كانت الى عزيمة أم الى صبر أم نسيان أم خضوع؟ يا رواجف صدري اكل ذلك ليست منهُ فائدة ترجى فان حاجتي ان لا اكون عرفتها من قبل

ويا قلب ! ما هي المعجزة التي يمكن أن تمنع الامر الذي وقع بعد ما وقع ؟

***

كلاَّ كلاَّ . ماذهب الحب وان الذي يكذّب حبهُ باظهار غيظه من الحبيب ليكذبهُ الغيظ. واذا انتهى أمرٌ من الامر وبقي في نفسك حبًّا فما انتهى

كلاَّ كلاَّ . ما استوفيتك يا رسالة الهجر فما اكثرك عندي فنوناً وما اوسعك معاني في نفسي

كلاَّ كلاَّ . فلو اني كتبتك مل ليل مظلم طال على محموم ، ثم اطلعت هي عليك فأغضبها ثم جاءت . . . . جاءت تسألني . . . . تسألني اكتبت هذه ؟

آه تالله إن اجبتها إلاّ « كلاَّ كلاَّ » . . . . (نسخة طبق الاصل)

مصطفى صادق الرافعي